في العيش المتكلّف

بقلم المتروبوليت سابا (اسبر)

قصدني زوجان يتخاصمان، باستمرار، ويشكوان بعضَهما بعضاً. فاتضّح، من حديثهما، أنّ المشكلة اقتصاديّة. فمصروفهما يفوق دخلهما بكثير، ما يضطّرُهما إلى الاستدانة؛ مع العلم أنّ دخلهما ليس بقليل، قياساً إلى الدخل العامّ السائد.

اقترحت عليهما حلّاً بسيطاً جدّاً، يقوم على أن يقتني كلٌّ منهما دفتراً صغيراً، يسجّل فيه، يوميّاً، كلّ مصاريفه. ويقومان، في نهاية الشهر، بعملٍ مشتركٍ، يصنّفان فيه ما صرفاه، ويبوّبانه في حقول مخصّصة لكلّ نوع منه: طعام، طبابة، اتصالات، إلخ. قلت لهما: هكذا ستعرفان، بعد عدّة أشهر، مقدار ما تحتاجانه، شهريّاً، لأيّ حقل من حقول معيشتكما. وكذلك ستستطيعان تمييز اللازم من النافل. ومن ثمّ تُلزمان أنفسكما بمبلغ محدَّد لكلّ حقل. وإذا ما اضطررتما، مرّة، إلى اجتياز الحدّ المخصّص لأحد الحقول، تقتصدان المبلغ من حقل آخر، حتّى لا تقعا في العجز.

غادراني مرتاحين، لكنّهما لم يتابعا تنفيذ الاقتراح، بعد الشهر الأول، وذلك، على حدّ قولهما، لأنّهما دُهِشا بكثرة المصاريف، فخافا المتابعة.

كم هم كثيرون أمثالَ هذين الزوجين! الغريب في أمر الناس، في مجتمعنا، أنّهم، في طفولتهم، لم ينشأوا على ثقافة التدبير والاقتصاد في النفقات، ولم يهتمّوا بتربية أنفسهم عليها، عندما كبُروا! لذا تَراهم مَسوقين، في مجتمع الاستهلاك بخاصّة، من الآخرين والمجتمع والمناخ العامّ باستمرار. وقلّما تجد من يسوقُ نفسه حقّاً، فيعيش كما يناسبه هو لا الآخرين، ويتصرّف بما يُفيده هو لا رفاقَه، ويبني ذاته كما يرى الصالح له هو، لا كما يراه غيرُه.

فإذا أخذنا الناحية الاقتصاديّة، وقد بدأت تضغط على الكثيرين، نرى أنّ الغلاء المتزايد لا يقودُ الغالبيّة العظمى من الناس إلى تدبّر أمور معيشتهم، بالتي هي أحسن، وهم مرتاحون نفسيّاً. لا يبدؤون بترشيد استهلاك الطاقة انطلاقا من بيوتهم حتّى. تراهم متوتّرين يسعون إلى الظهور بمظهرٍ معاكِسٍ لإمكاناتهم الاقتصاديّة، ولو استدانوا، وراكموا على أنفسهم أثقالاً إضافيّة. فيحصدون المزيد من القلق والتذمّر والتشكّي.

ولأنّ البُعدَ الروحيّ لحياتهم ضحلٌ، لا يجدون متنَفَّساً لهم، من الهموم المعيشيّة، إلا المزيد من رمي أنفسهم في دوامة الحياة الطاحنة، التي يعانون منها، في ما يعتقدونه سبيلاً للترفيه والخروج من الروتين وضيق الروح، وهذا ما يعيدهم، بعد الانتهاء منه، إلى المزيد من القلق والهمّ والتذمّر. وهكذا دواليك، يدخلون في دوّامةٍ لا تنتهي، تطحنهم حتّى يحينَ أجَلُهُم.

****

أمام طاحون المجتمع الاستهلاكيّ، الذي يطحن البشرَ، ويمتصّ مَقدَراتهم، الجسديّة والروحيّة والماديّة، كم نحن بحاجة، وقبل كلّ شيء، إلى الشجاعة والثقة بالله وبالذات. وتالياً تعلّم فن الترشيد وتدبير شؤوننا اليومية بالطريقة الفضلى لا السائدة.

ثمّة توقٌ، في داخل كلّ إنسان، إلى الظهور أمام الآخرين بمظهرٍ يسترعي الإعجاب. قد يتفاوت هذا التوق في شدّته من إنسان إلى آخر، لكن هاجس أن نوجَد في عيون الآخرين، لا في عيوننا يبقى حاضراً.

هل ننتبه إلى تغيير الموضة المستمر، وإلى تأثير صور نجوم المجتمع علينا؟ وإلى أيّ حد يدفعنا هذا إلى حبّ العيش المتكلّف، والمناسبات الباذخة، والأعراس القاتلة؟

وصفت سيدة فاضلة أفراد عائلتها قائلة: إنّهم لا يعيشون لأنفسهم، بل للآخرين. يقتلهم حبّ الظهور في عيون الآخرين، ولو كان ظهوراً كاذباً مخالفاً لحقيقتهم، ويدفعون ثمنه من سعادتهم وصحّتهم!

****

لم يعد الزمن يسمح لنا بترك أنفسنا على عفويّتها، واستبعاد تنظيم أمور الحياة عنّا. فالحياة المعاصِرة استهلاكيّة بامتياز، وتقوم على ترسيخ القناعة بأنّ السعادة تكمن في ثقافة الصرف shopping، بينما هي تنشأ، في الحقيقة، من ثقافة الاكتفاء بما هو ضروري. لم تكن النوافل، مرّة، مصدراً للسعادة، بل بهجةً وقتيّةً، تزول بزوالها.

السعادة شعور ينبع من الداخل، من الطمأنينة الناجمة من حضور الله في حياتنا، ومن النفس التي وجدت معنى حياتها، والتي عرفت كيف تميّز بين الضروريّات والكماليّات، والتي تعي بأنّها ترغب بالعيش كما يناسبها، لا كما يريد الآخرون لها.

والتي تمتلك الشجاعةَ الكافية، لكي تسلك في أمور معيشتها وفق قناعتها الروحيّة، لا وفق الدارج في أعراف الآخرين. باختصار، السعادة يعيشها من كان واثقاً بنفسه، إلى درجة الشجاعة، التي تجعله يطلب ما يراه مفيداً له، ومُرضياً لضميره وقناعاته، وفق تعليم إنجيله؛ ولو خالف، في ذلك، المألوف في مجتمعه.

الإنسان الحكيم، هو الذي يرى صحّة سلوكه في عيون الله، وذاته تالياً، لا في عيون الآخرين. لا يهمّه ما يقولون عنه كونه لا يجاريهم في أسلوب معيشتهم. هو لا يستمدّ وجوده من رضاهم عليه، بل من رضى ربّه وذاته.

ما زلنا نرفض الدرْجة الأولى في سلمّ الأولويّات؛ أعني العيشَ ببساطة. ولو كان الجميع يتوق في داخله إليها. وعلى الرغم من أنّ الإنجيلَ يدعو إليها مراراً:

- "خبزنا الجوهري أعطنا اليوم ... " (متى ٦:١١)
- "لا تهتمّوا بما تأكلون وبما تشربون ... " (متى ٦:٢٥)
- "إنّما الحاجة إلى واحد... مريم اختارت النصيبَ الصالح، الذي لن يُنزع منها ... " (لوقا ١٠:٤٢)
- "اطلبوا أوّلاً ملكوت الله وبرَّه، والباقي يُزاد لكم ... " (متى ٦:٣٣)
- "اهربوا من حبّ المال وحبّ السلطة وتعظّم المعيشة..." (انظر ١ تيموثاوس ٦: ١٠ ، ٢ تيموثاوس ٢: ٢٢ ، ١ يوحنا ٢: ١٦)

****

أتُرانا نسأل أنفسنا، أمام تصرّفٍ باذخ ومتكلّف وفي غير محلّه، إن كنّا نخالف الإنجيل، ونسير سيرة مناقضة له، أم أنّنا لا نعي هذا الأمر، متبّنين المبدأ السائد، والمناقض للإنجيل: "كلُّ شيء له وقته"؟

كم يلزمنا من التدقيق والفحص الصادق لضميرنا المؤمن، حتّى نقتني حسّ التمييز المبارَك، الذي يجعلنا واعين لما يلزم ولما لا يلزم، لما يفيد ولما يؤذي، لما هو ضروري ولما هو كمالي!

كم يلزمنا من الشجاعة والثقة، لكي نُظهِر أنفسَنَا على حقيقتها، وقناعاتَنَا دونما خجل، ونحتقرَ ونستخفَّ بما يخالف مبادئنا، بدلاً من الخجل منها!

كم يلزمنا من الثقة بالذات وبالمباديء التي نتبنّاها، بدلاً من المسارعة إلى تقليد الغير، لئلا نظهر دونهم!

متى نعي أنّنا نكبرُ عندما لا ننساق مع التيّار الاستهلاكي، ونفرحُ بالعيش البسيط، مكتفين بحضور الله في حياتنا؛ وأنّنا نصغُرُ عندما نركض وراء العيش المتكلّف، الذي يمنحنا شعوراً وقتيّاً بالبهجة، ليسرق منّا الفرح الحقيقي الدائم؟

"مرتا مرتا إنّك مهتمّة ومضطربة بأمور كثيرة، وإنّما الحاجة إلى واحد" (لوقا ١٠: ٤١-٤٢).